الحصار في الرواية العراقية

دراسة موضوعية مقارنة ،بين التكرلي وبتول الخضيري

د . م . عبد الكريم خضير عليوي السعيدي

كلية الآداب ـ جامعة ذي قار ـ قسم اللغة العربية

ملخص

سعت هذه الدراسة النقدية للوقوف على أدب الحصار في الرواية العراقية ، من خلال نموذجين من نماذجها ، وهما رواية (الغايب) للروائية العراقية بتول الخضيري ،التي نشرتها عام 2004 ، ورواية (اللاسؤال واللاجواب) لفؤاد التكرلي ، التي نشرها عام 2007 ، وقد سعينا إلى التعرف على وجهات النظر المختلفة اتجاه الحصار الاقتصادي الذي خيم على العراق في تسعينات القرن الماضي ، بأن قارنا بين وجهة نظر المرأة ممثلة برواية (الغايب) للخضيري ، ووجهة نظر الرجل ممثلة برواية (اللاسؤال واللاجواب) لفؤاد التكرلي ، فدرسنا وحللنا اهتمامات كلا منهما ، ورأينا أن هناك تشابها في طروحاتهما ،فكلاهما سلط الضوء قي روايته على العائلة البغدادية المتوسطة ، وكلاهما خلص إلى نتائج تشير إلى أن الحصار قد خلف ورائه انحدارا في قيم المجتمع العراقي ، بوصفه الأثر الأول من آثار الحصار ، وان الإنسان مهما كانت درجة رقيه لابد أن ينحدر بقيمه صوب الهاوية بفعل وحشية الحصار ، والأمر سيان بين الرجل والمرأة ، إذ لا فرق هنا بينهما .

Summary

This study has the cash to stand on the literature in the novel the siege of Iraq, through two types of models, two novel (alkayb) Iraqi novelist virgin Khudairi, which was published in 2004, and the novel . (Allaswal and Allajawab) Fouad Takarli, published in 2007, we have sought to identify the different points of view towards the economic blockade, which was overshadowed by Iraq in Tsainat the last century, that we compare between the point of view women were telling (alkayb) of Choudhury, the point of view, men represented story (Allaswal and Allajawab) Fouad Takarli, Vdersena and analyzed the concerns of both of them, and we saw that there is a similarity in the Trohathma, both highlighted the valuable novel on the family Baghdadi, middle, and both concluded that the results indicate that the blockade has left behind a decline of values when the Iraqi people, as the fruit the first fruits of the siege, and rights to whatever degree, paper, should descend values towards the abyss by the brutality of the siege, and it's all the same between men and women, there was no difference here between the two.

من المعروف إن الرواية هي فن المدينة، ولما كان مجتمع المدينة بطبيعيته أكثر أنواع المجتمعات تغيراً واستجابة للتجديد وتمثلاً للتحولات، فكان من الطبيعي أن تعنى الرواية في استجابتها لمتغيرات المجتمع المدني وتحولاته بفعل التغير وما ينتج عنه، والرواية العراقية ليست استثناءً من هذا التعميم الصحيح إلى حد كبير، فقد كانت دوماً مستجيبة للمتغير، ولاسيما لما شهده المجتمع العراقي من تحولات، وأكثر ما اتضح ذلك خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها، وفي سنوات 1958- 1963 - 1968 ،ثم في النصف الثاني من السبعينات، وفي سنوات الحصار، وأخيراً بعد سقوط بغداد. لكن ذكر مراحل التحول هذه لا تحصر التجربة بتلك التي ظهرت في تلك المراحل، ولا بالأعمال التي اهتمت بما حصل في هذه المراحل، فلو إستعرضنا مسيرة الرواية العراقية عبر مراحلها ، لاتضح لنا ان تلك الأعمال تحدثت - في مراحلها كلها - عن فترات التحول الاجتماعي في المجتمع العراقي على مر العصور ، ولم يقتصر الحديث عن عصر من دون آخر ... ويغلب على تلك الروايات أنها تميل إلى أن تجعل تلك التغيرات والتحولات الحاصلة في المجتمع سلبية، أو إن المواقف منها كانت سلبية، ربما بسبب كون الروائي جزء من المجتمع، ومن ثم فان الرواية تعبير هذا الروائي عن متغيراته، ولما كان المجتمع العراقي لم يكد يرى في العقود الأخيرة إلا الويلات والنكبات والمآسي، ولا يزال، إذن ماذا ننتظر من ابن هذا المجتمع ؟، ماذا ننتظر من جزء من هذا المجتمع أن يقدم غير الذي قدمه الروائي؟، مع عدم إنكار ما انطوت عليه بعض الروايات من إيماءات تصب في اتجاهات أخرى.(1)

في روايته الأخيرة (سفر السرمدية) ، يقدم لنا الروائي العراقي عبد الخالق الركابي موقفا بالغ الأهمية ، و شديد الثراء بإيحاءاته التي تتعلق بقضية مركزية ترتبط بالدور الإنساني و الاجتماعي للمبدع و حدود التزامه بهموم و انشغالات شعبه المصيرية ، فقد أصبح هذا الدور ثانويا إن لم أقل مهملا تماما في ظل موجة الحداثة وما بعدها و بخاصة في ظل مفاهيمها الغربية المستوردة، في هذا الموقف يجري حوار بين بطل رواية (سفر السرمدية) و صديقه يوسف خوشابا صاحب محل تسجيلات (الدانوب الأزرق) الذي وصله الأول بعد أن تجول في سوق مفتوح يعرض فيه المواطنون العراقيون ، على الأرصفة ، أثاث منازلهم و مقتنياتهم الشخصية العزيزة للبيع بأسعار زهيدة كي يضمنوا شروط بقائهم ووجودهم الذي تعرض للتهديد الماحق بسبب الحصار الشامل الذي فرض على الشعب العراقي بعد غزو الكويت : يقول خوشابا لصديقه أن طروادة كانت مدينة إغريقية صغيرة ، لا يزيد عدد سكانها على العشرة آلاف نسمة ، و قد تعرضت لحصار معروف ، قاومت و صمدت ثم تم اختراقها بفعل خدعة الحصان الخشبي الشهيرة . و المهم في هذا الأمر ، و بقدر ارتباطه بالعملية الإبداعية و بدور المبدع تجاه شعبه ، هو أن شاعرها هوميروس هو الذي خلد صمود مدينته و استبسال أبنائها في الدفاع عنها و الذود عن حياضها . و قد صاغ هوميروس تفاصيل ذلك في ملحمته الشهيرة : (الإلياذة) التي تتناقلها الأجيال عبر مئات السنين بشغف و اهتمام ، و صارت علامة فارقة في تاريخ الأدب العالمي عبر عصوره المختلفة . وأعاد جيمس جويس كتابة وقائعها في عمله يوليسيس بطريقة معاصرة.

ومناسبة هذا الكلام هو أن (خوشابا) يرى أن الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة الأمريكية على شعب العراق و الذي استمر لأكثر من عشر سنوات أحرق خلالها زرع الوجود و ضرع المحبة ، هو حصار لا يمكن مقارنته بحصار طروادة مطلقا ، فهنا يتعرض شعب كامل للتجويع و الإبادة البطيئة أمام أنظار الضمير الإنساني العالمي ، بل بمباركته ، من دون أي احتجاج رسمي لكن هذه المحنة لم تجد لها توظيفا خلاقا يناسب حدتها و شراستها من المبدعين العراقيين ، ولاسيما في مجال الرواية ،ملحمة الشعوب المعاصرة أو أسطورتها الحديثة كما يصنفها النقد المعاصر ،ومما لاشك فيه ان هذا الحديث الذي وضعه عبد الخالق الركابي على لسان شخوصه انطوى على اشارة من المؤلف يحض فيها الكتاب العراقيين على انتاج كتابات ترتقي الى مستوى الحدث ، فالمشهد الروائي العراقي لم يشهد عملا روائيا يتناسب مع هول مصيبة الحصار، ربما لهول تلك الواقعة ، ثم انظر إلى القنبلة الموقوتة التي يفجرها الركابي بلا تردد - رغم أنها تعنيه أيضا لأنه من المشمولين بالحكم الذي أطلقه خوشابا - حين يطرح بطل الرواية اعتراضا (حداثيا) وجيها على كلام خوشابا من خلال القول بأن الظروف الراهنة لا تعمل لصالح الروائي المعاصر و تحاصر جهوده من أجل الانتشار و إيصال منجزه إلى القراء . هنا يرد عليه خوشابا بالقول أن هوميروس كان أعمى ، وهو فاقد لبصره لا لبصيرته ، و أنه كان يوصل أبيات ملحمته من خلال إنشادها على قيثارته . شاعر أعمى و بقيثارة صغيرة استطاع نشر واحدة من أعظم الملاحم في الأدب العالمي . فكيف لا يستطيع المبدع العراقي و العربي المعاصر - كما يقول الركابي - الذي بات يمتلك أشد الوسائل قدرة على التأثير و التواصل مثل شبكات الإنترنيت و مواقعها و الحواسيب و أجهزة التلفاز و الفضائيات و غيرها ؟ ، فهل نحن أمام تقصير فادح من لدن الروائيين

العراقيين في استثمار أوجاع شعبهم للكتابة الروائية ؟(2) . أقول جوابا عن هذا السؤال إن ما يراه خوشابا ليس بالضرورة هو الواقع عينه ، ربما اجّل الروائيون العراقيون الحديث عن فترة الحصار إلى فترة لاحقة ، في فترة يستعيدون فيها كرامتهم وإنسانيتهم ، لأننا وجدنا اهتماما كبيرا من لدن روائيي العراق ، ومنهم الراحل التكرلي والمعاصرة الخضيري .

أردنا في هذه الورقة النقدية الوقوف على نصين روائيين عراقيين استجابا لنداء خوشابا فاتخذا من الحصار الذي عانى منه شعبنا في عقد التسعينات من القرن الماضي موضوعا لهما ، فوقع اختيارنا على رواية (اللاسؤال واللاجواب) لفؤاد التكرلي وهي مسك ختامه ، ورواية (غايب) للروائية العراقية بتول الخضيري ، ولعل من الواجب الإشارة هنا إلى الأسباب الكامنة وراء هذا الاختيار ، ثم ما هي المشتركات التي تجمع كلا النصين ،فأقول : إن ما يشترك به كلا النصين هو كونهما كتبا خارج العراق ، أي في فضاء واسع من الحرية بعيدا عن الرقابة ،وفي الوقت نفسه خارج محنة الحصار ، إذ اعتمد الكاتبان على ما سمعاه وقرآه من قصص الحصار والمعاناة ، ومن ثم فهما لم يعيشا الحالة كما هي ، لأن من سمع ليس كمن شاهد ورأى ، وفي هذا تقول الخضيري : شاع مصطلح أدب الداخل وأدب الخارج في فترة ما ، لكن هناك غربة الداخل وغربة الخارج وبالنهاية هي غربة، فأهل الداخل يعتقدون أن أهل الخارج ليس لهم الحق في الكتابة عن الداخل، فلأهل الداخل مشاكلهم وهمومهم و للمغتربين في الخارج مشاكل من نوع أخر يختلف تماماً عن أهل الداخل فنحن المغتربين لدينا معاناة و تحملنا كثيراً وصبرنا أنفسنا في العودة إلى الوطن الذي يعيش في دمنا وكتباتنا وهمومنا ، ولكن هناك فجوة أصبحت بين الأجيال ، جراء هذه الهجرة العراقية ، فهناك جيل لا يعرف الجيل الذي يليه ، وصار جزء من التحدي أن اكتب عن الوطن وأنا خارجه ، فعلى الرغم من بعدي عن الوطن ، لكني دخلت إليه عن طريق الكتب التي ينشرها الأعلام الغربي ، وبدأت التقى بالقادمين من العراق والمسافرين العراقيين إلى الخارج ، وبهذا أصبحت أنا في الداخل عن طريق الكتابة وربما أقرب من الذي يعيشون في الداخل . وهكذا ولدت (غايب)فضلا عن ذلك ،فلقد قرأت كثيراً عن الصدفية وتربية النحل والفن العراقي والحصار وهذه المعلومات استقيتها من بحث علمي كتبته ليتحول إلى رواية كوميدية لكنها كوميدية سوداء كما وصفتها الصحافة الأدبية(3) ، وفضلا عما تقدم فان كلا العملين يتحدثان عن هموم الطبقة الوسطى في العراق ـ كما يشير الكاتبان إلى ذلك ـ ومعاناتها جراء الحصار ، ولاسيما أن كلا الكاتبين ـ مع فارق العمر بينهما هما من سكان المدن ، وبالتحديد من سكنه بغداد ، وارى أن في هذا الأمر دلالة كبيرة سنوضحها في حينه . أما مسألة الاختلاف بينهما فهي راجعة إلى أن كل نص منها يعبر عن وجهة نظر مختلفة عن الأخرى ، فهناك وجهة نظر الرجل ووجهة نظر المرأة . أردنا باختيارنا هذا الوقوف على الكيفية التي نظر فيها كلا من الرجل والمرأة العراقيين للحصار ، ما هي أولويات كلا منها ـ حسب جنسه ـ واهتماماته .

ولدت بتول الخضيري عام 1965 في بغداد من أب عراقيّ توفي في حادث سيارة عام 1990 وأم اسكتلنديّة. حصلت بتول على بكالوريوس في الأدب الفرنسيّ من الجامعة المستنصريّة ،وأثناء عملها في مجال الأعمال الحرّة الخاصّة تنقّلت بين العراق والأردنّ وإنكلترا وحاليا هي تعيش في عمّان، ومن ثم فهي لم تعش المعاناة التي تحملها العراقيون أيام الحصار، كما لم يطاردها النظام الدكتاتوري . نشرت روايتها الأولى " كم بدت السماء قريبة " في بيروت عام 1999 ،وفيها تحدثت عن فترة الحرب العراقية الإيرانية وعن معاناة الناس في تلك الفترة ، ثم توالت ترجماتها لغات كثيرة ؛ الانجليزية والايطالية والفرنسية و الهولندية ، وكانت هذه الرواية موضوعا للدراسة والتحليل في الدرس النقدي في عدد من المحافل الثقافية . أما روايتها الثانية " غايب " فنشرت في بيروت أيضا في عام 2004 ، ثم توالت ترجماتها إلى اللغات الأجنبية المختلفة مثل سابقتها ، حاولت الخضيري تغيير نمطيتها بالتحول نحو الكتابة للسينما والتلفزيون ، فزجت بنفسها في تخوم عالم السيناريو وهي تسعى الآن لتحويل روايتها الأولى إلى فيلم سينمائي بالتعاون مع المخرج العراقي المغترب طارق هاشم (4) . تقول الخضيري عن روايتها " الغايب "((أنها رواية التحدي بالنسبة لي فبعد صدور روايتي الأولى سمعت تعليقات كثيرة ، فأحدهم قال لي (أنها قصة حياتك) ومن السهل جداً أن يكتب الإنسان قصة حياته ،حتى أني طلبت من أستاذي الدكتور مهند يونس أن يكتب مقدمة لروايتي هذه فقال لي : إن من يكتب رواية واحدة لا يسمى كاتبا ،وهذا ما جعلني بتحدي الجميع فكانت غايب))(5) .

تتحدث الروائية العراقية بتول الخضيري في روايتها الثانية "غايب" الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت / 2004 (6) عن الحصار وانهيار الطبقة المتوسطة العراقية من وجهة نظر المرأة العراقية الرائية لخراب القيم والأخلاق والتغير نحو الهاوية التي يمر يها المجتمع العراقي ،وقد اختارت الكاتبة السرد وسيلة لتوصيف الحياة العراقية في صراعها بين القيم الغابرة(أيام الخير في السبعينات)

وأخرى جديدة ظهرت بفعل التصحر الذي خلفه الحصار والحروب ، وقد سجلت في سردها إدانة للمجتمع العراقي الذي استكان مستسلما لواقعه المرير . الرواية تمثل فترة تاريخية مهمة ودقيقة من حياة الشعب العراقي .. فترة كان لها أهميتها الخاصة لكونها الرحى التي طحنت الجميع من دون استثناء وفوارق عكست الرواية صورا من صراع سكان العمارات السكنية في بغداد من أجل البقاء تحت ضغط الحصار الاقتصادي والفكري ، والملاحظ هنا أن أغلب شخصيات الرواية هي شخصيات نسائية ، وربما أرادت الكاتبة أن تسجل في هذا الأمر اختفاء رجال البلد في ظروف غير طبيعية، وربما من هنا جاء عنوانها (الغايب) ، ولعل مجيئه بهذه الصيغة القريبة من الصيغة العامية للفظة (غائب) إنما فيه إشارة إلى كونه قد انتشل من وسط شعبي عراقي ، ومن ثم فان ما سيقال لاحقا إنما هو انعكاس لها الواقع الشعبي .

أما فؤاد عبد الرحمن التكرلي ، فقد ولد في محلة باب الشيخ في بغداد عام 1927 وكان جده محمد سعيد التكرلي ، نقيبا لأشراف بغداد ، وفي محلة باب الشيخ (عبد القادر الكيلاني) المعروفة ببغداد ، بدأ يتلقى علومه فدخل المدرسة الابتدائية ، وأكمل الإعدادية ، وتخرج في كلية الحقوق (القانون حاليا) سنة 1949، وبعد تخرجه عين بوظيفة كتابية في محكمة بداءة بعقوبة ، ثم تولى مناصب قضائية كثيرة ولاسيما بعد عودته من مدينة بعقوبة إلى بغداد، ومن ذلك تعيينه قاضيا في محكمة بداءة بغداد سنة 1964 لكنه لم يلبث في هذا المنصب طويلا ، إذ حصل على إجازة دراسية لمدة سنتين سافر خلالها إلى فرنسا ثم عاد ليعين خبيرا قانونيا في وزارة العدل ،وفي التسعينات استقر في تونس عدة سنوات مع مترجمة روايته "الرجع البعيد" وزوجته فيما بعد الكاتبة التونسية رشيدة التركي ، وهناك في تونس كان يستلم مرتبه التقاعدي ضمن وظيفة شكلية في المركز الثقافي العراقي لم يكن الكاتب يتشرف بها، بل يشعر معها بنوع من الإجبار والاضطرار ،ثم من جديد سافر إلى باريس فبيروت ثم أقام في سوريا قبل غزو أميركا العراق وبقي فيها بعده يعمل في مؤسسة المدى للنشر ثم انتقل إلى الأردن ثم حصل على تقاعده حتى وفاته في هذه البلاد عن ثمانين سنة(7) .

لقد عاصر التكرلي أجيالا من السياسيين ، وشهد تقلبات العراق السياسية ، لحقب ثكلى ومحملة بالأسى لم يتعرض فيها لأية مضايقة أو ملاحقة سياسية أو أمنية ،وهو لم يتعرض لبطش السلطة في عهد صدام حسين كما تعرض كتاب عراقيون غيره، فهو لم يتعرض يوما لا للتوقيف ولا الاعتقال ، ولم يسمع عنه انه شارك في مظاهرة أو تجمع مناوئ للسلطة ، كما هو الحال لدي بعض أصدقائه وزملائه في النشاطات والاجتماعات الحزبية ، لهذا حاول نظام صدام دائما استمالته وتقديره أو على اقل تقدير تحييده ، ربما لأنه قاض نبيل معروف ، واحد رجالات القصة والرواية والإبداع لذلك لم يكن من الصواب أن يتعرض له لأي سبب من الأسباب ، وهو يعترف بهذا فقد قال في مقابلة نشرتها جريدة المدى: ((كل أعمالي هي ضد السلطة ،ومع ذلك كتبت وأنا في العراق وبقيت فيه .. كنت أعيش في العراق بشكل طبيعي ،ركزت في كتاباتي على المشاكل الحقيقية لدى الشعب العراقي ،ولم أكن أشتم أو احتج بطريقة فجة ،بل اخترت الكتابة العميقة))(8)، لكن الرجل تعرض لكثير من الانتقادات بهذا الخصوص ، ولاسيما بعد قبوله العمل كمستشار للرئيس العراقي، جلال طالباني، لشؤون الثقافة والأدب، وهو منصب شرفي ومعنوي ومادي ، وهو أمر لم يمنع بعض نقاده من مهاجمته واتهامه بـ التقاعس عن إبداء أي إشارة احتجاج على احتلال العراق بل وحاولوا أيضا التقليل من شأن موهبته الأدبية، كما أن هناك من انتقده بسبب موقفه من كتابات صدام حسين ، ولاسيما ما نشره في جريدة (الشرق الأوسط) عن أدب صدام حسين الروائي (9) .

ظهرت اهتمامات فؤاد التكرلي الأدبية منذ وقت مبكر من حياته ، وراح يلتقي عددا من أقرانه المعروفين بحبهم للأدب والشعر والقصة أمثال عبد الملك نوري ، وعبد الوهاب البياتي، وشقيقه نهاد التكرلي . الذي كان يؤمن له اطلاعه على عدد من الكتب والمجلات الأدبية . لقد جرب التكرلي في بداية حياته الأدبية الكتابة في أجناس أدبية ،وكان قد ابتدأ مشواره الأدبي مع القصة القصيرة في أربعينيات القرن الماضي، ونشر أول قصة له بعنوان «همس» في مجلة الأديب البيروتية عام 1951 ، ثم أصدر أول مجموعه قصصيه له بعنوان «العيون الخضر» عام 1957، لكنه ما لبث أن استقر على الكتابة الروائية ، وفي هذا يقول : ((استغرقني النثر منذ البداية. النثر الروائي عالم معقّد، واللغة الروائية ينبغي أن يكتشفها الروائي بنفسه، لا عبر الاستفادة من تراث ضخم ومتنوّع كما يفعل الشاعر))(10) . ابتدأ عام 1948 بكتابة روايته الأولى (بصقه في وجه الحياة) ولم يكملها إلا عام 1949 ، لكنه لم ينشرها معللا ذلك بان مجتمع العراق آنذاك لم يكن يستوعب نشر مثل هذه الرواية لما انطوت عليه من أفكار ورؤى وتفسيرات كانت تضر بسمعته هو قبل غيره (11) وقد نشرت الرواية في بيروت بعد ربع قرن (1980) ، وتميزت كتاباته بالجرأة في الطرح والصراحة في ملامسة ومناقشة هموم المواطن العراقي، وانطوت على تحليل عميق لمعضلات الواقع السياسي والاجتماعي

في هذا البلد، فضلاً عن الاعتناء بالشكل الفني والجمالي ، واشتهر عنه احتفاؤه بالأجواء الشعبية في سرده ، فهو يستمد مناخ قصصه ورواياته من الفضاء الاجتماعي المحلي مثلما خبره،ومن الواقعة التاريخية مثلما شهدها وقرأها، فالأحداث والشخصيات المحورية في رواياته بمختلف انتماءاتها الاجتماعية والسياسية والثقافية تتحرك في فضاءات مكانية عراقية وخاصة في بغداد العاصمة وضمن جغرافية(المحلات) الشعبية كمحلة باب الشيخ وما يتبعها من أزقة أو شارع الكفاح (غازي)وما يتماس أو يتقاطع معه من شوارع ،أو محلة الفضل وما يجاورها ، وغيرها من المحلات البغدادية ، والتكرلي يحاول نقل خصوصية هذه الأمكنة من جهة المشكلات الاجتماعية ومستويات الفقر، وعمق معاناتها ،وحدة صراعاتها ،أن يتعامل معها بمنتهى الواقعية.(12)

ومن ابرز أعماله مجموعة قصصية بعنوان (الوجه الآخر) سنة 1960 ، وهي مجموعة قصصية جمع فيها اغلب قصصه التي كان قد نشرها في الصحف الأدبية كمجلة الأديب اللبنانية ، التي كرمته في عام 1952 بان أعطته جائزة القصة القصيرة ،وانطوت هذه المجموعة على قصته الطويلة التي تحمل عنوان المجموعة نفسه،والتي أعجب بها العديد من النقاد لدرجة أن بعضهم عدّها رواية، ومن المعروف أن بعض النقاد اليساريين المتحمسين أو الحزبيين الشيوعيين أو المحسوبين عليهم لم يقبلوا هذه المجموعة ، كونها لم تتجاوب مع "الحس الثوري" آنذاك، كما حدث الأمر نفسه مع الروائي غائب طعمه فرمان في"مولود آخر" ، الذي واجه نقدا لاذعا من احد النقاد بسبب عدم انطوائها على عدد من الأبطال الإيجابيين والثوريين والمتحزبين ، ويبدو أن أغلب الكتاب العراقيين آنذاك كان متفتحا على الأفكار التقدمية والديمقراطية والليبرالية الجديدة ومنهم من اندفع مع التيار الأشتركي الماركسي إلا أن فؤاد التكرلي لم يتحمس رغم "يساريته أو ليبراليته" إلى الفكر الاشتراكي أو التيار الشيوعي، لأنها وباختصار يسارية ليبراليه غير ماركسية(13).

لم يكن التكرلي غزير الإنتاج ولا دائم النشر أو مهووسا به ، فالتكرلي يتمهل في نشر نصوصه ولهذا قد تبدو متأخرة في الإصدار، إلا أنه لم يكن ليبالي بمثل الأمور بقدر ما يولي أهمية لصياغة العبارة والبناء والتحرير الأدبي اللغوي وكل ما له علاقة بمقومات القصة الفنية، التي كانت ُتعد لدى بعض الأوساط نوعا من الكمال أو المغالاة ، أقول لهذا وبعد أكثر من عشرين عاما وبالتحديد في سنة 1980 صدرت روايته (الرجع البعيد) ، وبعد ذلك بست سنوات أصدر مجموعة حواريات بعنوان (الصخرة) ، وصدر له في تونس سنة 1991 مجموعة قصصية بعنوان(موعد النار). وفي سنة 1995 صدرت له رواية (خاتم الرمل) ،التي رصد فيها هي ورواية (المسرات والأوجاع) التي صدرت عام 1999 فيها تحولات المجتمع العراقي خلال العقود الأخيرة ، وختمها برواية (اللاسؤال واللاجواب) في عام 2007التي أوقفها على الحديث عن التغيرات التي شهدها المجتمع العراقي إبان الحصار الظالم في التسعينات .

ولما كان الروائي جزء من المجتمع، والرواية تعبير هذا الروائي عن متغيراته، فإن المجتمع العراقي لم يكد يرى في العقود الأخيرة إلا الويلات والنكبات والمآسي، ولا يزال، وهذا ما قدمه لنا كلا من التكرلي والخضيري ، فالتكرلي في معظم أعماله الروائية قدم لنا أعمالا يمكن قراءتها على أنها سياسية وأخلاقية وسوسيولوجية تكشف عن الواقع الاجتماعي العراقي ، فهو بدأ من روايته الأولى "الرجع البعيد" راح يتناول حقبا مهمة من تاريخ العراق السياسي ، كانقلاب 8 شباط العسكري، بينما نجد أن "خاتم الرمل" تناولت فترة الثمانينات، التي شهدت توسع ثروة العراق وقوة تكنيك أجهزة النظام المخابراتي وبداية انحطاط القيم، وفي "المسرات والأوجاع" تشمل التاريخ العراقي الحديث منذ تأسيس الدولة العراقية حتى الحرب العراقية الإيرانية. أما رواية " اللاسؤال واللاجواب "فكانت الخاتمة التي سجل فيها محنة الحصار ، وكذلك الخضيري فهي على الرغم من قلة إنتاجها الروائي (روايتان فقط لحد الآن) إلا أنها لم تكد تخرج عن موضوع العراق وتوثيق تاريخه لمعاصر والمتغيرات الاجتماعية التي صاحبت ذلك التغيير .

ينتمي التكرلي إلى جيل الخمسينيات في العراق، جيل الريادة الحقيقية في القصة العراقية حاله حال غائب طعمه فرمان (1927-1990)و عبد الملك نوري (1921-1998) ومهدي عيسى الصقر (1927-2006)، وعدت أعمالهم : (نشيد الأرض ـ لعبد الملك نوري ، النخلة والجيران ـ لغائب طعمه فرمان ، الوجه الآخر ـ للتكرلي) بما انطوت عليه من حداثة ممثلة بلغتها السردية الوسطى واقتصادها اللفظي ، وتعبيرها عن هموم الإنسان العادي ومعاناة المجتمع الحديث ، فضلا عن توظيفها تقنيات السرد المعاصر كاهتمام كتابها بوصف العالم الداخلي للشخصيات وعدم الاكتفاء بالتناول الخارجي، وتمايز الأصوات في عملية السرد، لهذه الأسباب عدت هذه الأعمال من التجارب السردية الأكثر نضجا في تاريخ الحركة الأدبية العراقية ، حتى أن النقاد

جعلوها الحد الفاصل بين مرحلتين ، و التكرلي يرى أنّ أبناء جيله هم حزمة متكاملة، يتشابهون في التعبير الواقعي عن المجتمع، لكنّه يشعر بأنّه مختلف عنهم في مسألة التعبير عن الفرد ودواخله: ((قصصنا القصيرة تبدو أحياناً كأن قلماً واحداً سطَّرها، كنّا نشترك في رسم لوحة بانورامية واسعة لمجتمع تلك الفترة .ما أنجزه الخمسينيون في القصة يفوق ما أنجزه زملاؤهم الشعراء... لكن للشعر سطوة أكبر عند العرب))(14) ،ويرى التكرلي كذلك أنّ روّاد الأدب في الخمسينيات هم الكتّاب الحقيقيون، وأيضاً الكتّاب الذين تأثروا بهم من الستينيين والسبعينيين. إلا أنّ الستينيين حاولوا بالأساس معارضة ما أنجزه كتّاب الخمسينيات، ودار في خلدهم أنّهم يستطيعون الإتيان بالجديد، وبتجارب لم يسبقهم إليها أحد. حاولوا أن يسلكوا اتجاهاً مغايراً، تمرّدوا، تطرّفوا، لكنّ ما أنجزوه كان نكوصاً وخيبة أمل في كثير من الأحيان، في حين يبدو له أن لا فائدة تُرجى من الجيل الأدبي الذي ولد في العراق خلال الثمانينيات والتسعينيات، لأنّ ممثليه اعتادوا قمع السلطة، وفقدوا طاقتهم على الكتابة. (15) وفي لقائه ذاته مع سعد هادي الذي نشرته الأخبار اللبنانية ،يرى فؤاد التكرلي أن لا فائدة تُرجى من الجيل الأدبي الذي ولد في العراق خلال الثمانينيات والتسعينيات، لأنّ ممثليه اعتادوا قمع السلطة، وفقدوا طاقتهم على الكتابة، ويرى أيضاً أنّ روّاد الأدب في الخمسينيات هم الكتّاب الحقيقيون، وأيضاً الكتّاب الذين تأثروا بهم من الستينيين والسبعينيين. إلا أنّ الستينيين حاولوا بالأساس معارضة ما أنجزه كتّاب الخمسينيات، ودار في خلدهم أنّهم يستطيعون الإتيان بالجديد، وبتجارب لم يسبقهم إليها أحد. حاولوا أن يسلكوا اتجاهاً مغايراً، تمرّدوا، تطرّفوا، لكنّ ما أنجزوه كان نكوصاً وخيبة أمل في كثير من الأحيان(16).

انصرف التكرلي مثل بعض القصاصين والروائيين العراقيين لتوثيق تاريخ العراق المعاصر والمتغيرات الاجتماعية التي صاحبت ذلك التغيير ، ولعله و ذو النون ايوب ، وعبد الخالق الركابي أبرز الجيل الأول على الإطلاق ،وفؤاد التكرلي كان يعتقد أن الخبرة في الممارسة الأدبية ، هي صنو الخبرة في الحياة المعيشية ، وهذا ما نلمسه في كتاباته الروائية فعلا ، فقد كتب روايته الأولى (بصقة في وجه الحياة) سنة 1949 ، وهو يحاول أن يؤرخ لأوضاع الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على نفسية المواطن العراقي وواقع مجتمعه والتغيرات التي طرأت عليه بسبب تلك الحرب ، وفي روايته الأخيرة (اللاسؤال واللاجواب) التي كتبها في سنة2007 أرخ لسنوات العراق الصعبة أيام الحصار القاسي الذي شهده العراق طيلة المدة من 1990 وحتى 2003 ،ومما لا شك فيه أن فترة ثمان وخمسين سنة التي قضاها التكرلي في الكتابة الروائية فترة ليست بالقصيرة بعمر المجتمعات ، استطاع خلالها التكرلي تسجيل معظم الأحداث التي وقعت في العراق ، وهو خلال ذلك لم يتورع من أن ينتقد السلطة في ومشاكلها أيا كانت ، وهو في كل أعماله يدعو إلى التمرد على السلبيات التي ظهرت في المجتمع ، بعد أن يضع اليد على معايب المجتمع ومشكلاته ،وتميزت تلك الدعوة بالجرأة ،ويلخص الناقد ناطق خلوصي ذلك بقوله : إن التكرلي في مجمل أعماله الروائية كان يحرص على تقديم استقراء لتاريخ العراق المعاصر ، ولاسيما في الخمسين سنة الأخيرة ... ويبدو أن التكرلي ، وهو ابن الطبقة الوسطى ، مع أنه عد يساريا في أفكاره ، كان على علم ببواطن وخفايا وأسرار هذه الطبقة لهذا حرص على اختيار شخصياته منها مع رغبة متناهية في إدانة كل أنواع الظلم الاجتماعي ، والسياسي ، والاقتصادي .كان التكرلي يعد كتابة الرواية عملية غامضة وممتعة ،ومحاطة بالمعاناة، والحرية الداخلية ،بنظره ،تطلق طاقة الإبداع (17).

يحاول التكرلي في رواية (اللاسؤال واللاجواب) ، كما الخضيري في رواية (الغايب) ،توثيق فترة يحاول العالم محوها من تاريخ العراق مع أنها من أقسى المراحل التي مر بها تلك هي مرحلة الحصار الظالم البشع ، الذي لم يقتصر على الجوانب الاقتصادية وحسب بل تعداها لتشمل الحصار العلمي والحصار النفسي ، لذلك جاءت هاتين الروايتين تعكسان حالة الإنسان العراقي وهو يواجه تلك السنوات القاسية، ولما كان ذلك كله يدخل في خانة اللامعقولات لذلك صار من الطبيعي أن نسمع التكرلي يقول :((انه لا يستطيع التعبير عن فصول هذه المأساة المستمرة ، فالوضع في العراق يستعصي على أي روائي مهما كانت عبقريته ، انه أمر غير معقول ، ولا ينطبق عليه حتى وصف العبثية ، أفكار السرياليين تبدو ساذجة تجاه ما يجري!!.))(18).

مسرح رواية (اللاسؤال واللاجواب) هو مدينة بغداد بأحيائها الشعبية المتعددة؛ كالشعلة والوشاش وحي دراغ والبتاوين وغيرها ، والزمن هو زمن الحصار الذي عاشه العراقيون ، وهو مسرح رواية الخضيري (الغايب) نفسه إذ ألقت الكاتبة الضوء في هذه الرواية على سكان عمارة من عمارات بغداد السكنية ، إذ جعلتها صورة مصغرة عن المجتمع العراقي ، ولاسيما البغدادي ،وكشفت الكاتبة عبر حكايات

سكان العمارة أنماطا من السلوك البشري تتعرى معها الشخصية العراقية وتخرج إلى حقيقتها المجردة لتكتشف كم هي هشة ومخترقة ومعزولة ومحكومة بسياق من القمع والجهل والتضليل والخوف .

تبدأ (اللاسؤال واللاجواب)(19)بالأيام في حياة بطلها ، فيوم الأحد من الشهر الأخير ـ كانون الأول ـ من عام 1994 هو اليوم الأول الذي يبدأ على النحو الآتي: «لا يمرّ كل شيء في الحياة المعيشة هذه مروراً عابراً. هنالك، على مدى السنين، حالات ومواقف تصهر نفس الإنسان وتختمها بختم لا يمحى. فجر اليوم حفرت في ذهني حالة من هذه الحالات، حالة غريبة وشاذة لا تفسير لها» (20).

تبدأ أحداث الرواية بتعرض عبد الستار حميد زهدي الشخصية الرئيسة في الرواية لحالة غريبة يجد نفسه على إثرها مرمياً من فراشه على الأرضية الثلجية وقشعريرة تهز جسده بعد أن غمرته ظلمة ثقيلة كادت تكتم أنفاسه، تأخذ هذه الحالة بالتفاقم شيئاً فشيئاً، ويوماً بعد آخر، فتفسد عليه حياته المليئة بالمشكلات يستيقظ عبد الستار من نومه فجرا ، ويجد نفسه مفترشا الأرض الباردة ،أدرك انه كان فاقدا لوعيه، وقد عاودته دوامة اللاشعور.. كان جسده يرتجف ملكته عبرة وهو ينتبه إلى ما يجري له ، وبصوت مرتعش نادى زوجته زكية التي ركضت إليه متسائلة عن حاله ، فقام على ساقين مرتجفتين وارتمى على السرير، أحس أن زكية خارج دائرة عيشه عندما حدثها بالأمر لكنها نصحته بأن يراجع طبيبا بشأن ما يجري له والقلق ينهشهما ، فراحت زكية تهزه عدة مرات وهي تصرخ محاولة إيقاف حركاته العشوائية اللاشعورية.. ثم عنّ لها فصفعته على وجهه المتقلص فبانت عليه إمارات فزع جنوني كمثل محكوم بالإعدام يقاوم جلادي ، وقد أحس بلطمتها فضرب رأسه بالحائط صارخا يتوجع ، وحينما أفاق قال لزوجته انه يعتقد انه مصاب بالصرع . هذا هو وضع عبد الستار اليومي منذ وجد كيس المخشلات الذهبية في مكتبة أبيه ، ولا يختلف وضعه في اليوم التالي، والأخير من الفصل الأول من الرواية عن الأيام التي سبقت، إذ نجده في حالته الصباحية ذاتها ملقىً على الأرض جنب السرير، وفي حالة أقرب إلى حالة مصاب بالصرع .

وعبد الستار حميد زهدي الذي تجاوز الخامسة والأربعين ، هو مواطن عراقي يعمل مدرسا في الصباح ـ وهي المهنة التي كان يمتهنها أبيه ـ في حين ينطلق مساء بسيارة جاره حيدر عبد الحسين (أبو سلمان) كسائق تاكسي في شوارع بغداد.. كان عبد الستار أحيانا يشعر برغبة دفينة في التجوال العبثي كونه رجلا مثقفا إلا أن وضع الأسرة المادي اللعين يجبره على ترك تلك الهواية والانهماك بهذا العمل ، الذي أتاح له التجوال أيضا ، فضلا عن عدم اضطراره إلى معايشة الجوع والفاقة ، وبيع ما يعتبر زائدا عن حاجة المنزل ، لذلك تقبل هذا العمل كي يتمكن من تأمين نفقات الحياة الباهظة. تزوج ستار من ابنة عمته زكية الخياطة التي كانت متزوجة من رجل باعتها له عمتها ، كان عبد الستار قد شغف حبا بها ، لكن تشاء الظروف أن تتزوج من آخر وتنجب طفلة اسمها هيفاء ، وتشاء الظروف أن يعودا إلى بعضهما بعد رحيل الزوج الأول، فقد كان عبد الستار وفياً لذلك الحب الأول البعيد فينجبان ابنتهما كوثر، وهم يعيشون الآن معاً في دار بمحلة "الوشاش"،وتعيش معهم والدة زكية المريضة.كانت المسكينة تنام في ركن صغير من غرفة الخياطة .

هذه هي الأسرة الصغيرة التي يحاول التكرلي أن يرصد التحولات التي تطرأ عليها منذ ثمانينيات القرن الماضي وحتى منتصف التسعينيات، ومن خلالها نكتشف تحولات بلد بكامله اسمه العراق. هذه الأسرة التي تعد نموذجاً لغالبية الأسر العراقية المتوسطة ، وهي أسرة ببغدادية بامتياز .عانت من صنوف القهر والحرمان نتيجة الممارسات السياسية الحمقاء للنظام العراقي السابق، التي أحدثت شرخاً في بنية الأسرة العراقية ،حالها حال الأسر العراقية كلها ، ثم جاء الحصار الاقتصادي الجائر الذي فرض على الشعب العراقي في التسعينات ليكمل فصول المأساة، ففي الوقت الذي لم يؤثر فيه هذا الحصار على النظام وأعوانه الذين كانوا يرفلون بالنعيم، كان الأطفال العراقيون يسقطون مرضى الجوع ونقص التغذية، وكان الشعب العراقي يموت جوعا ، وفي احد الأيام يدخل عبد الستار إلى الغرفة التي تشغلها مكتبة والده ، التي كان قد تركها له بعد وفاته، وإذا به يجد بين أكداس الكتب وهو يقلبها كيساً متوسط الحجم من القماش الأسود السميك ملفوفاً بخيط متين، وفي هذا الكيس وجد مخشلات ذهبية متعددة وثقيلة الوزن، وعلى عدد كبير من الأساور والخواتم المرصعة بمجوهرات كبيرة تتلألأ مثل شموس ساطعة. فيتساءل، وقد أخذته الدهشة وأحاطه الاستغراب: من أين جاءت هذه الثروة الطائلة؟ ، ثم تبدأ الشكوك تساوره، ليسأل نفسه: هل يمكنني حقاً أن اشك بزوجتي وبهيفاء، وماذا يمكن أن تعملا من أعمال كي تستطيعا جمع هذه الكمية الهائلة من الذهب؟ أمر لا يصدق. إذ حتى لو باعتا جسديهما ليل ونهار خلال أكثر من سنة كاملة لما استطاعتا تدبير نصف هذا المبلغ، ثم انه راح يستنطق «هيفاء» (ابنة زوجته من زواجها الأول) وزوجته عن ذلك !!.. ويظلّ لا يدري من أين أتت، ومن جاء بها ليخفيها بين الكتب في هذا المكان ، ويبدو أن اسم الرواية (اللاسؤال واللاجواب) قد انتشل من هذا

الحدث السردي ، كما يمكن أن ينطبق على أحداث الرواية برمتها ، فلا سؤال ولا جواب عند الناس الذين كبلت أفواههم ، فلا هم يستفسرون عن وضعهم ولا هم يجيبون من يسأل .

وفي ظل الجور والظلم والجوع الذي تعيشه العائلة ويعيشه العراق ، وضع التكرلي بطله أمام امتحان صعب، بين أن يسلم المجوهرات إلى الشرطة أو يحتفظ بها ،فعبد الستار الذي لا يتذكر كيف وصل كيس المخشلات الذهبية إلى مكتبة والده ، كان قد انتزعها من سكير لص ، كان قد سرقها بدوره من احد بيوت البتاوين بعد أن قتل صاحبها ، وكان هذا اللص قد ركب سيارة عبد الستار ليلا من ساحة الأندلس يريد الوصول إلى حي الشعلة ،ولما لم يتفق عبد الستار مع الزبون على مقدار الأجرة تعاركا ، ثم جاء بهذه المسروقات وخبأها بين الكتب من دون وعي منه ، وهو حتى لو تذكر فهل له أن يتنازل عنها ؟ ، فعبد الستار راح يعاني من ازدواجية وحيرة قاتلين، هل يعترف ويتخلى عن المجوهرات ليستمر في العيش بائساً فقيراً،ولكن مع حفاظه على قيمه التي طالما آمن بها ودرسها لطلابه ، أم يحتفظ بها لنفسه كي يتغلب على قسوة الأيام وضنك العيش؟ فهو أما أن يحتفظ بالمجوهرات لنفسه، وتتبدل حياته نحو الأفضل، أو يسلمها إلى الشرطة التي وصلت إليه ، ويبقى فقيرا معدما . أراد التكرلي أن يقول لنا ملخِّصاً رسالة عمله الأدبي أن قسوة الحصار الاقتصادي والفقر تقود حتماً إلى انهيار القيم وخراب النفوس، بل أن الأقسى من ذلك عندما يعتقد الناس أن ذلك كله لابد أن يحصل ، لأنه استجابة للمشيئة الإلهية ، وفي هذا انقل الحوارية التي دارت بين عبد الستار السائق ، وبين احد الشيوخ العجزة الذين اقلهم بسيارته ، يقول المعلم (عبد الستار حميد)- بطل الرواية- وسائق التاكسي للراكب الشيخ الذي أقله :((إن مآسي الحصار هي امتحان للعراقيين فرضته إرادة الله)) ،فيحتج الأخير ويقول :((لا تقل مثل هذا الكلام . لا تضع على كاهل الرب ما عمله شخص واحد .تأمل نفسك يا أخي.. ماذا يمكنك أن تعمل بعد أن داسك العالم بحذائه وداسنا بإصرار . العالم كله يتجمع ليقتل شعبنا بأكمله جوعا وحرمانا . العالم لا يمتحن العراقيين . العالم يريد أن يقتلهم وأزيدك علما بأن هذا العالم الذي حدثتك عنه يريدك أن تموت بصمت دون كلام دون احتجاج))(21)، هكذا كان شعب العراق بأكمله يرزح تحت وطأة ثقيلة وخانقة لحالة الحصار وهو يؤمن بحتميته ما يجري وانه القدر الإلهي الذي لابد منه ولا مفر .

هذا هو جوهر الرواية الذي أراد التكرلي إيصاله لنا ، فعبد الستار الذي هو من ناحية كان لا يأخذ حقه تماماً من صاحب سيارة الأجرة التي يقودها كل مساء ، وكان لا يخفي عنه ما كسب خلال ساعات العمل إلا تلك المبالغ التي تُعطى له مثل هدية (مبالغ أكبر من الأجور المستحقة)، نجده من ناحية أخرى نراه يحتفظ بمال ضخم مسروق من غير أن يحاسبه ضميره، ومن غير أن يسأل نفسه أسئلة ذات طابع أخلاقي بهذا الصدد ويظل هذا الصراع النفسي يلازمه ، فهو يشعر بأنه قد خان أخلاقه التي شوهتها سنوات القهر والحرمان لذلك راحت النوبات الهستيرية - التي كان يعتقد أنها نوبات صرع - تلازمه في أثناء النوم ، وهي ليست سوى انعكاس لصراع داخلي كان يجري في منطقة لاوعي عبد الستار ، الذي راح يدفع ثمن ذلك من صحته النفسية

وعلى الرغم من كون الرواية تتحدث عن حقبة تاريخية معينة (عقد الثمانينات والتسعينات) وواقع تاريخي محدد كما هو واضح ، لكن ذلك لا يعني البحث عن مدى التطابق بين العالمين (عالم الرواية والواقع المشار إليه ، وهو عقد التسعينات في العراق حيث الحصار ناشب أظفاره في العراقيين) كما إننا لا نسعى هنا إلى عقد مقارنة بين هذين العالمين ، لكننا نرى أن واقع العراق المعيش في تلك الفترة كان حاضرا هنا بكل تفصيلاته في هذه الرواية. صور التكرلي في روايته هذه الهزات التي أصابت الطبقة الوسطى المدنية، ولاسيما الشريحة الدنيا منها، ليس من الناحية الاقتصادية وحسب وإنما من الناحية القيمية والأخلاقية أيضاً إلى درجة استقالة الضمير وضعف المشاعر الإنسانية الاعتيادية كالندم والشفقة فهناك على الرغم من الكفاح المضني من أجل لقمة العيش نوع من الاستسلام أمام المصائب والآلام والسلبية التي طبعت الشخصية العراقية كما يقدِّمها التكرلي في زمن الحصار مردّها أيضاً إلى أجواء القمع السياسي التي عاش فيها المجتمع العراقي في العقود الأربعة الأخيرة من القرن العشرين، ثمة خوف من الكلام حتى أمام الذات، ناهيك أن يكون أمام المقربين ، أو هو نوع من القناعة بلا جدوى الخوض في مسائل سياسية لا تنفع، قد تقود إلى التهلكة ، لذلك لا يناقش أبطال الرواية جذور حالتهم التعسة وكأنها نتيجة حكم إلهي.

لم تسأل زكية زوجها عن مصدر المصوغات الذهبية التي طلب منها بيعها ، بل أنها أخبرته أن صائغها المتواضع قد قدر قيمة المصوغات بالدولار الأمريكي بسبب انخفاض قيمة الدينار العراقي وكبر كمية المصوغات ، حتى أن سعرها صار يساوي مبلغا محترما يمكنهم أن يشتروا به بيتا جديدا ، كان هم زكية الوحيد هو النجاة هي وعائلتها مما يقاسونه في حياتهم من حرمان ومذلة ، وبعد بيع دارهم في محلة (التسابيل) في الوشاش أخذ عبد الستار وزكية يبحثان عن دار للشراء وكانا في هذه الفترة مع الفتاتين

والوالدة يتناولون وجبات طعام دسمة ثلاث مرات يوميا ، وعبد الستار في هذه الأثناء أخذ ينقطع عن عمله ليفصل من عمله الوظيفي كمعلم وكسائق عند جاره، وكان هذا ما يرغب فيه ، بعد أن ضاق ذرعا بوظيفته .

وهنا لابد لنا من الإشارة هنا إلى بعض مواطن الركة في منطق الرواية ، والذي يبدو أن منشأه عدم معايشة المؤلف للحالة التي كان عليها العراقيون ، ويبدو انه اعتمد على ما سمع وقرأ حسب ، ومن ذلك جعل عائلة عبد الستار تقتات على كسرات يابسة من الخبز ، كما أنهم لا يستطيعون شراء بيضة واحدة ، فضلا عن تقوتهم بحبة باذنجان واحدة يقطفونها من شجيرة في حديقة المنزل ، في الوقت الذي كان عبد الستار يعمل عملين (مدرس وسائق) ، وزوجته تعمل خياطة ، في حين كان سعر الباذنجان هو الأرخص في مرحلة الحصار بالعراق ،حتى سمي بـ (وحش الطاوة) ، أقول إن سبب ذلك يعود إلى اعتماد الكاتب على ما يسمع ويقرأ لا على معايشته الحالة في الواقع .

اشترى عبد الستار دار جديدة في محلة حي (دراغ) باثني عشر مليونا من الدنانير ينقصها بعض الترميم فانفق عليها ما يقارب ثلاثة ملايين دينار لتجديدها مستغلا عدم مراقبة الجيران لهم ، لأنهم باعوا دارا ثم اشتروا أخرى . تركت زكية محلة (الوشاش) غير نادمة بعد انتهاء امتحانات الفتاتين ، فبعد ذلك الضنك والعوز هاهما الفتاتان وقد استقلت كل واحدة منهما بغرفة خاصة بها ذات ضوء ساطع وأثاث جميل.

في إحدى المقابلات مع التكرلي قال : إنه شعر بالحماسة لكتابة رواية اللاسؤال واللاجواب ، ولاسيما أنّه كان يتمتع بصحة جيدة .لقد أردت التعبير عن فترة زمنية يحاول العالم محوها من تاريخ العراق، هي فترة الحصار الاقتصادي. جاءت الرواية موجزة وقصيرة. عندما بدأت الكتابة لم أكن أعرف كم سيكون طولها، أنا حذر في إطالة أي موقف لأي سبب كان. أفادتني كتابة القصة القصيرة في هذا المجال. في الرواية أشعر بأنّ الجمل محسوبة عليّ إذ يكفي أحياناً رسم صورة ذات تفاصيل واقعية في الرواية لنجعلها حية حتى النهاية (22)، ويبدو من هذا الحديث أن التكرلي كان خائفا إلا ينهي كتابة روايته ، وربما لهذا السبب تقلصت مساحة الرواية ، والتي كان بمقدورها أن تطول أكثر مما هي عليه ، ومن اللافت هنا هو أن التكرلي عمد إلى الرواية المشاركة في جزء الرواية الأول ، فشخصية عبد الستار هي التي تحكي لنا ما حصل لها بطريقة اليوميات ، في حين تصدى الراوي العليم ـ في الجزء الثاني من الرواية ـ لرواية أحداثها ، وهذه انتقالة لا مسوغ فني لها سوى أنها قلصت مساحة الرواية ،لأن إيقاع الأحداث في هذا الجزء كان أسرع مما كان في الجزء الأول الذي اعتمد صيغة اليوميات المثقلة بالتفاصيل، وفي المرات التي يلجأ فيها الكاتب إلى استخدام ضمير الغائب في القسم الأول ، وعلى سبيل المثال عندما يلجأ التكرلي إلى وصف النوبات الكابوسية التي يتعرض لها الراوي ـ عبد الستار ـ التي لا يكاد يتذكر منها شيئاً حين يستيقظ .

في القسم الثاني من الرواية ،الذي كان برواية الراوي العليم ، نتعرف فيه للمرة الأولى إلى الاسم الكامل للبطل، وعمره، وكذلك حيدر عبد الحسين (أبو سلمان مالك السيارة) ، وهنا تبدأ رحلة أخرى، ولكن هذه المرة بين الشرطة والقضاء، هنا تستدعي الشرطة صاحب السيارة (أبو سلمان) ، ويبدو هنا أن التكرلي لم ينتبه إلى مسألة منطقية أخرى في سرده ، إذ لم يوضح لنا الكيفية التي تعرفت بها الشرطة إلى (أبي سلمان) ومن ثم إلقاء القبض عليه بعدما قبضت على شخص في حال سكر يدعي أن سائق التاكسي (الذي أعطاهم رقمه) اعتدى عليه حينما كان ينقله ليلاً إلى حي الشعلة، وسلبه ما كان يحمل من أموال هي ذاتها الأموال التي قام المقبوض عليه بسرقتها من دار شخص في منطقة البتاويين، ومن ثم قتله ، نتعرف هنا على قصة اقتحام اللص منزلا من منازل البتاوين ليلاً، وسرقته تحت تهديد السلاح، ثم جريمة قتل صاحب المنزل ، يعترف المجرم هنا للشرطة بجريمته وبما استولى عليه من مصوغات ذهبية أذعنت زوجة المجني عليه وسلمتها للقاتل الذي استقل سيارة عبد الستار حميد زهدي من ساحة الأندلس إلى حي الشعلة، ولكنه عندما وصل «أراد أن ينزل وينصرف فمنعه السائق واعتدى عليه ثم سلبه كيس المخشلات بعد أن ضربه وطرحه أرضاً» ، ثم راحت الصورة تتضح لعبد الستار انه نفسه سائق السيارة التي أقلت الجاني من ساحة الأندلس إلى حي الشعلة ،وحين وصلا نزل اللص من السيارة يترنح وقد صفق الباب خلفه بشدّة وأراد أن ينصرف وحينها طالبه بالأجرة فشتمه ، فأمسك عبد الستار به من كتفه محاولاً أن يتفاهم معه، فوجه السكير إلى فكه لكمة أرجعته مذهولاً إلى الوراء، وحين اندفع يركض خلفه التفت إليه، موجها ضربة بآلة حادة ـ لم يميزها أول الأمر ـ انحرف بوجهه متفادياً الضربة فأصابته في الجهة الخلفية من جمجمته فارتجّ ذهنه رجة كبرى، ثم انه هجم على السكير آخذاً تلك الآلة من يده، موجهاً بها ضربات متوالية إليه، تهاوى على إثرها اللص السكران على الأرض ، ثم تنبه، وهو في السيارة، إلى كيس القماش الأسود يقبض عليه بشدة بين أصابعه، وكان ذلك هو الآلة الصلبة التي ضربه بها .

يدخل البطل في صراع ذاتي مع نفسه، فالذهب الذي عثر عليه بين الكتب ولا يدري من أين، اتضح له مصدره الآن ، فالصراع الآن بين الحق والباطل ، فهل يلتزم جانب الحق ؟ . يبدو أن الجوع والعري والمهانة والمعاناة والحرمان والذل وانتظار المجهول المخيف وقتل العواطف حالت كل تلك الأمور التي كان يعانيها وعائلته من تسليم المجوهرات والاعتراف بالحقيقة .

تنتهي أحداث الرواية في اليوم الأخير من شهر أيار (مايو) 1995، بعد أن تغيرّت أحوال العائلة: وضعاً، ومسكناً، ومعاشاً. وفي النهاية، يجد البطل (عبد الستار) نفسه «متكوّماً في زاوية من زوايا الغرفة الواسعة المصبوغة الجدران ذات الأثاث الجديد، ملتماً على نفسه كحشرة قبيحة في مصيدة. لم يكن يرى بعينيه إلاّ صراخه ونواحه وغرغرته. لم ير زوجته تقف فوق رأسه باكية نادبة، ولا سمعها، ولا رأى الفتيات يلطمن على رؤوسهن، ولا سمع صراخهن وعويلهن...» (23)

أما رواية (الغايب) فتبدأ بحكاية تحكيها علينا "دلال " وهي فتاة عراقية تبين فيها ما جرى لها وعائلتها من أحداث بضمير المتكلم ،فنعرف أنها الناجي الوحيد من حادث انفجار لغم ارضي منسي من حرب 1967 على السيارة التي كانت تقلها والدتها ووالدها مهندس النفط الذاهب إلى وظيفته الجديدة في صحراء سيناء، بعد أن طارت من نافذة المقعد الأمامي ، فكتب القدر لهذه الطفلة التي كانت تبلغ من العمر أربعة أشهر أن تعيش ، ومن ثم تنتقل للعيش في شقة بشارع السعدون مع خالتها وزوجها العقيم ،الذي يكنيه الناس كحال المتزوجين العراقيين ممن لا أطفال لهم بابي غايب . لم يكن أبو غايب يرغب ـ زوج خالتهاـ أن يُكنى بها على الرغم من عقمه ، بل انه أصّر على أن يُدعى " أبو غايب " .كان الزوجين محرومين من الأطفال والخالة كانت معلمة قبل الحصار، وزوجها كان موظفا كبيرا في وزارة السياحة، ثم أصبحا «متقاعدين محترفين». هي خياطة تعيش في عالم وهمي من الأزرار المختلفة الأشكال والأحجام، وهو مربي نحل يأمل أن يجني عسلا يدعم ميزانية الأسرة، ويمضي أيامه في تقشير جلده بسبب أصابته بداء الصدفية.

كانت شقة أبي غايب في عمارة تتكون من بضعة طوابق تقع قرب ساحة الفردوس في بغداد، وتطل على حدائق نادي العلوية، وجامع الجندي المجهول ، وهو مكان كان يجمع ورثة وجاهة ماضية مع أبناء عائلات حديثة الجاه. العمارة هنا هي عينة من الطبقة المتوسطة في بغداد (ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن نُصب الجندي المجهول الآن فقد هُدم في هذه الساحة وتم بناؤه في منطقة أخرى غير سكنية ، وساحة الجندي المجهول تغير اسمها رسمياً إلى ساحة الفردوس ، وارتسم هذا المكان في الذهنية العراقية بوصفه المكان الذي شهد ملمحاً بارزاً في تحولات العراق، ألا وهو سقوط تمثال صدام وسط ساحة الفردوس، وان كل ذلك حصل والروائية الخضيري لما أنهت مخطوطة روايتها بعد بنحو عامين). زوج الخالة أو أبو غايب مثال لافت لشخصية الطبقة المتوسطة العراقية، فهو موظف كان محترماً في السياحة، له تجارب في الرسم فشلت تحول على أثرها إلى صاحب مجموعة بارزة من لوحات التشكيل العراقي، ومثقف ممتاز في تاريخ العراق على مدى عصور، وهو قبل أن يصبح متقاعداً محترفاً كان دليلاً سياحياً ورساماً هاوياً . أما خالتها الخياطة فهي قبل أن تصبح خياطة ، كانت مُعلمة ابتدائية ، ومن الواضح أن أجواء المكان في رواية الخضيري أكثر تحضرا وأكثر رقيا بالمستوى الاجتماعي من أجواء رواية التكرلي ، ويبدو لي أن الخضيري لم تكن موفقة في ذلك ، ذلك لأن أجواء ساحة الفردوس ونادي العلوية يشعران بفخامة وسمو ورفعة ، عكس أجواء حي دراغ والوشاش التي اسكن فيهما التكرلي عائلة عبد الستار ، ومن ثم فان من الصعوبة بمكان إقناع المتلقي بان عائلة متوسطة الحال تعيش في ساحة الفردوس ، وربما من الصحيح القول هنا أن عمارة الخضيري التي أسكنت فيها عائلة دلال هي أنموذج عن العوائل الغنية التي أفقرها الحصار .

عاشت هذه الطفلة مع خالتها مدللة ، ولكن سرعان ما داهمتها الحُمى ، ثم جلطة وهي صغيرة فينسحب فمها نحو اليمين ، ولأن يتمها يجعلها تبدو للجميع خاوية جدا، لذلك حاول كل من حولها أن يختار لها مستقبلها ،ومهنتها التي يجب أن تكون، و يرسم لها خريطة الطريق التي يجب أن تسير عليها ،وهي لا ترفض شيئا.! تستمع للكل، تتعلم من الكل، و تساعد الكل،وعندها يأتي الخذلان، من القريبين الذين تسللوا خفية إلى القلب . جارتها الهام تريد لدلال أن تتعلم الفرنسية لتعمل كمترجمة ، وسعد الساكن في الشقة الأرضية يريدها أن تتعلم الحلاقة لتعمل معه ، وخالتها تود أن تتقن التطريز كي تساعدها ، وزوج خالتها يريد أن تعمل معه في المنحل ، وجارها الآخر المصور (سابقاً) أبو رائد أراد أن يعلمها فن التصوير :((تلتقطين الحياة كما ترينها أنتِ ، وليسَ كما يراها أو يريدها الآخرون لكِ))(24) . لكن في النهاية معدلها أدخلها كلية الآداب / قسم اللغة الفرنسية ،ثم أنها اضطرت أن تعتمد على نفسها ، فلا توجد خيارات ـ أحياناً ـ في كسب العيش. كانت بحاجة للمصروف ، واستطاعت أن تُوفق بين دراستها وبدوامها في منحل زوج خالتها ، وفي صالون سعد الحلاق ،

لأن الحصار خانق كأنه بطانية صوف في عز الصيف ،وبعد أن أصبحت دلال شابة، صارت ثقافة أبي غايب القديمة وهوايته في الرسم وجمع لوحات الفنانين العراقيين، اقرب إلى نفسها من مماحكات خالتها التي لا تنفك تقارن بين ما كانوا عليه وما صاروا فيه من أحوال بين «زمن الخير» وأزمنة القحط والحروب. ورغم أن زوج الخالة كان نعم الأب للبنت اليتيمة التي تعاني بدورها من انسحاب فمها جانبا،إلا أنها كانت تعيش حياة مملة؛ لا سفر ولا مشاريع زواج ولا حفلات ولا حدث يشرح النفس. إنها أيام موقوتة على ساعات انقطاع الكهرباء، وعلى النقار بين الخالة وزوجها، وعلى متابعة ما يجري في الشارع من نافذة الشقة، وعلى صياغة مفارقات مضحكة من تلك العجائب المستحدثة التي فرضها الحصار وجعلت من يوميات أهل المدينة مشاهد سوريالية. أن كل واحد منهم يتحايل على زمانه لكي يستنبط ما يعينه على عيشة مستورة، وأحيانا بلا ستر، ولا تخلو الرواية من مشاهد رومانسية تمثلت بالعلاقة الغرامية التي جمعت عادل مع دلال ، وهي علاقة ما كان لها أن تكون لولا صديقها سعد الحلاق ، وقد استطاع عادل ـ على الأقل ـ أن يغير نظرتها في أشياء كثيرة ، لكن الصدمة الكبرى التي ستلاقيها دلال هي عندما تعرف أن عادل ضابط امن وان صديقها الذي وثقت به (سعد الحلاق)هو العين التي كانت تراقب الجميع .

ولغرض رسم صورة سوداوية عن الواقع الذي كان يعيشه العراق آنذاك ، جعلت الكاتبة مجتمع العمارة السكنية وما حولها يتخبط بالمتناقضات ، فهذا مهندس وقد تحول قصاباً، كان مهندسا مدنيا ، لم يجد عملا فقرر أن يبيع اللحم ، وطلق علي محله اسم ملحمة جلجامش ،وهناك متعلم آخر تحول حلاق نساء، وأستاذ جامعي آثر العزلة، وممرضة تتاجر بالأعضاء البشرية، وبالمقابل هناك فئات اجتماعية متخلفة استغلت الوضع لتزداد سطوة وثراء ، وربما كانت شخصية "أم مازن" قارئة الفنجان التي تسكن الطابق العلوي ، التي هي بمثابة المحلل النفسي لنساء العمارة ، من تلك الشخصيات ، فهي كانت تجمع بين صناعة الحجاب وفك الألغاز بفنجان القهوة ، وفضلا عن ذلك فهي تحضِّر بالطب الشعبي وخلطات الأعشاب حلولاً للأزمات الاقتصادية والنفسية والغرامية لسكان العمارة وغيرهم ، ولأجل ذلك كله حازت أم مازن على شهرة واسعة جعلتها تلك الشهرة مثابة للذين يبحثون عن العمارة ، فبعد أن كانت هذه العمارة السكنية عمارة للارستقراطيين ، صارت الآن عمارة أم مازن لشهرتها كقارئة فنجان ، رغم أنها كانت مجرد مستأجرة حالها حال سكان العمارة الباقين ويبدو أن شهرة هذه المرأة قد طارت في الآفاق ، حتى صار الناس يتزاحمون على زيارتها ، فهاهي دلال تصف بدقة طوابير النساء اللاتي جئن ينتظرن إسعاف أم مازن لهن ، وهي في كل مرة تذهب لزيارتها بمعية خالتها وجارتها الهام الممرضة ، تجد هذا الكم من النساء ، ولم يمنع النساء طلب أم مازن منهن مقابل فتح الفنجان مبلغا بالعملة الصعبة ، لأن الجني ـ كما تقول الكاتبة بسخرية وتهكم ـ يحتاج إلى موافقة للسفر ، وفضلا عن ذلك فقد تطرقت الكاتبة لأدق التفاصيل اليومية التي كانت جزءً مهماً في حياتنا آنذاك ، حتى جعلتنا نتساءل عن السر وراء عدم إغفالها تسجيل لكل شيء يمر دون أن تلقي عليه الضوء وتُعلّق عليه بأسلوب ساخر لدرجة الإعجاب بها وبذكائها وتصويرها الدقيق لذاك الواقع المرير .

وانطوت الرواية على مشاهد رسمت حالة العوز والفاقة التي لازمت الشعب العراقي أيام الحصار ، ولاسيما أبناء الطبقة المتوسطة الذين تفككت أسرهم واضمحلت لصالح القسوة والتخلف والعوز ، ومن تلك المشاهد مشهد سقوط آخر حبيبات (النسكافيه) من يد دلال يشير إلى معنى عدم قدرة عراقيين الذين خبروا مباهج الحياة البسيطة على تعويض ما أحبوه، أو مشهد الفتاة وهي تستعيد طعم حلوى (ماكنتوش) عبر وضعها ورق سيلوفان ملوناً أمام عينيها يشير إلى نكهة الحلوى "المنقرضة"، أو حديث حلاق النساء : ((الوحدة صعبة يا دلال . الحروب خطفت الكثير من الرجال . زبوناتي يشكين من ذلك . إحداهن اعترفت لي أنها لشدة وحدتها تحب أحياناً أن تتخيل أن ستارة غرفة نومها ، عندما تعبث بها نسمة هواء ، تصدر حفيفاً هادئاً يجعلها تغمض عينيها . تتخيل أن هذا حفيف دشداشة زوجها القادم في ظلمة الغرفة إلى فراشها . مع العلم أنه توفي قبل سنوات عديدة .))(25) ، أو حين تصور الكاتبة مشهد العمال ينقلون للبيع قطع أثاث وأجهزة في نادي النخبة العراقية "نادي العلوية" الذي سنجده في فصول الرواية يشهد تحولات غريبة أخرى، إلى درجة السماح بتأجير ساحة التنس فيه وتحويلها إلى منحل فبعد تدهوره وتقلص أعضاءه يقرر القائمون عليه تأجير حدائقه وملاعبه المهجورة لمن يريد فيستأجر أبو غايب بالمبلغ المدخر لعملية دلال ـ عملية تجميل وجه دلال أو إعادة فمها إلى سابق عهده ـ ساحة التنس في نادي العلوية وجعلها منحلاً ،علّه يخرج من قوقعته وتقريع زوجته الدائم له عن فشله وعدم تمكنه من فهم تحولات المجتمع في وقت الحصار ، وبهذا أصبح لأبي غايب اهتماماته أيضا ، وأصبح للوقت أهمية لديه ، كما لدى زوجته التي تهتم كانت تهتم بموسمين، هما موسم الخياطة الشتوية وموسم الخياطة الصيفية .أما أبو غايب فالوقت بالنسبة له موسمين

أيضا ، احدهما لجمع الرحيق والآخر لفرز العسل ، وهو موسم لم يكد أبو غايب يراه ،بسبب جثث قتلى الحرب التي جمعها الجنود تحت خيمة سرية في أطراف نادي العلوية وبالمقربة من منحل أبي غايب بعد أن عجزت المشارح عن استيعابها ، والتي سببت فيما بعد هروب النحل ، ومن ثم عدم جدوى المشروع برمته ،كذلك صورة القذيفة التي اخترقت شقة صاحبة خلطات السحر والأعشاب، وصورة شخصية (عادل) ضابط امن العمارة الذي كلف مهمة مراقبة سكان العمارة باستخدام حلاق النساء عينا له ، وقد اشتهر عنه انه كان ماهرا في الحب والعناق ، وكانت أصابعه طرية مثل أصابع البامياء ، وكان هذا الضابط قد استخدم حبيبته (دلال) ممراً إلى القبض على زوج خالتها بعد فشله في تربية النحل بتهمة تهريب الموروث العراقي حين قرر الرجل بيع ثروته من اللوحات الفنية في الأردن بمساعدة صديقته في البلد المجاور،والصديقة الأقرب الممرضة (الهام) تنتهي سجينة بعد اتهامها بالمتاجرة بالأعضاء البشرية .

وعلى الرغم من كون أحداث الرواية تقع قبل الاحتلال الأمريكي، لكنها وثقت عدد القذائف التي سقطت على العراق منذ كانون الأول سنة 1998 وحتى نهاية 1999 ، عندما ألقيت أكثر من ألف وثمانمائة قنبلة ، ومما لا شك فيه إن هذا السجل التاريخي الذي اهتمت الرواية به ، وتسجيلها كأعداد القذائف الساقطة على العراق خلال حرب الخليج الثانية 1991، وأرقام عن ضحايا الحصار من الأطفال والنساء، ومشهد الضحايا في " ملجأ العامرية"، وتصاعد التلوث البيئي بعد ضرب المفاعل النووي العراقي، وإعدام عدد من التجار بعد اتهامهم بالتلاعب بسعر الدولار، وإعدام عدد من النساء لممارستهن الدعارة ، وهو أمر اضعف النسيج الفني للرواية ، إذ جعلها رواية تسجيلية تهتم بتسجيل الحوادث التاريخية ، وعلى الرغم من وجود عبارة في خاتمة الرواية تبرأ الكاتبة من جميع ما ورد في روايتها : ((الأسماء، والشخصيات، وتسميات الأمكنة، الأحداث، وخلطات الأعشاب الواردة في هذا العمل الروائي هي من نسج خيال المؤلفة، وان أي تشابه يجده القارئ من الواقع أن هو إلا مجردة صدفة غير مقصودة)) (26) . أقول على الرغم من ذلك تبقى الرواية زاخرة بالمعلومات العلمية الوافية عن مهن شخصياتها ، وقد حفلت بالتفاصيل الدقيقة ، حتى أننا عرفنا مقادير خلطات أم مازن السحرية ، وأنواع الأصباغ وما يقوم به سعد الحلاق ، وأزرار وباترونات وأقمشة خالتها الخياطة ، وما يتعلق بالكاميرا وزوايا التصوير الذي كان يمارسه أبو رائد سابقاً ، ولكن أجمل المعلومات كانت عن منحل زوج خالتها .. فعرفنا الملكة (أم النحل) والشغالات ، والذكور الذين مهمتهم تلقيح الملكات العذارى ((أشياء كثيرة لا تعرفها عن هذهِ الحشرات . هل تعلم أنهُ لأجل أن يحصل أبو غايب على غرام واحد من العسل فأنه يجب على النحلة الشغالة جمع ثلاث غرامات من الرحيق ، ومن أجل هذا عليها زيارة أكثر من ألف زهرة تفاح مثلاً ؟)) (27).

وأخيرا فان رواية " غايب " انطوت على سبعة عشر فصلاً ، ستة عشر منها تتحدث عن الحصار وعن معاناة الناس يوم بيوم . أما الفصل الأخير ، فقد كان القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لدلال ، وذلك بعد اكتشافها أن الخذلان يأتي من القريبين جدا ، من الذين تسللوا خفية إلى القلب، وبالتحديد من حبيبها عادل الذي اتضح انه كان (ضابط أمن) ، وقد أعانه سعد في مراقبة سكان العمارة ،وانه طوال علاقته معها كان يستغلها لمراقبة زوج خالتها ، ومن ثم فان عادل وسعد يتحملان مسؤولية الإخبار عن أم مازن واتهامها بتهمة الدجل والشعوذة ، وعن اتهام صديقتها المقربة الهام بتهمة بيع الأعضاء البشرية لصديقها المهندس الذي اضطر للاشتغال كلحام، وعن اتهام زوج خالتها بتهمة تهريب التراث العراقي لخارج الوطن !!! ، الأمر الذي جعلها ـ دلال ـ في الصفحات الأخيرة من الرواية تستيقظ من غفوتها وصدمتها وتذهب للعمل في مصنع لفرز النفايات يزوره مفتشو الأمم المتحدة فيما بعد بحثا عن أسلحة الدمار الشامل .

بقي علينا الإجابة عن سؤال مهم هنا ، هو ما الذي تريد الروايتان أن تقولاه ؟ هل هناك قضية واحدة ام قضايا عدة ؟! ، وللإجابة عن هذا السؤال لابد لنا من تتبع الإشارات السيميائية التي بثها الكاتبان في ثنايا سردهما ، وفي ضوء ذلك أود تسجيل الأمور التالية :

واضح أن موضوع الروايتين هو الحصار الاقتصادي الذي خيم على العراق في تسعينات القرن الماضي بعد احتلال الكويت ، ونسجل هنا لصالح التكرلي انه أشار في روايته إلى ذروة هذا الحصار ، وهي الفترة الممتدة بين سنة 1994 وسنة 1995 ، وذلك عندما أرخ بهذه التواريخ لبداية ونهاية روايته ، إذ جعل مبتدأها احد أيام كانون الأول من العام 1994 ، وجعل نهايتها في نهاية مايس من العام 1995 ، وهذه فترة يتذكرها جميع من عاش الحصار هي الذروة في القسوة ، وللاستشهاد أقول بوصفي احد شهود المأساة أن معدل راتب الموظف آنذاك كان يتراوح بين(3 -4)آلاف دينار ، في حين كان سعر كيس الطحين (50) ألف دينار ، أقول حسنا فعل

التكرلي في إشارته هذه . أما الخضيري فقد أطلقت العنان لزمنها ، ولكننا نستنتج من خلال سير الأحداث أن عقد التسعينات برمته هو المعني هنا .

ونسجل للتكرلي كذلك براعته في رسم فضائه الروائي ، عندما تحدث عن احياء (دراغ ـ الوشاش ـ البتاوين ـ الشعلة ..) ، وهي كما هو معلوم أحياء يسكنها على النحو الأغلب أناس متوسطي الحال أو من الطبقة المتوسطة ، في حين لم اقتنع أنا شخصيا أن عائلة من الطبقة المتوسطة تسكن في عمارة في منطقة ساحة الفردوس الشهيرة ، وان شرفات شقتها تطل على نادي العلوية الشهير بكونه ملاذا للأغنياء والميسورين ، ومما يؤكد هذا الأمر الصور التي ساقتها إلينا الكاتبة بوصفها صورا عن عوز وبؤس وفاقة تلك العائلة ، مثل ندرة حبات النسكافة وندرة حلويات الماكنتوش وتأجير ساحة التنس الخاصة بنادي العلوية وتهريب لوحات تشكيلية للأردن ، وغيرها من الصور التي رصفتها المؤلفة لإقناع القارئ بأن تلك العوائل كانت تعاني من العوز والفاقة !! ، وهي كما هو واضح صور بعيدة عن أن تسند إلى عائلة متوسطة الحال في زمن الحصار ، وبعبارة أخرى ؛ هل أن عبد الستار (بطل التكرلي) ـ على سبيل المثال ـ كان يهتم بندرة النسكافة وحلويات الماكنتوش أم كان يهتم بزراعة حبات الباذنجان في حديقة منزله لقوت عياله ؟! ، ولاسيما اننا نتحدث عن عقد التسعينات عندما كان مجرد التفكير بحلويات الماكنتوش يعد بطرا ، ويبدو لي أن التكرلي كان أكثر إقناعا من هذه الناحية ، ربما لخبرته الاجتماعية المتأتية من نشأته في بيئة شعبية (محلة باب الشيخ عبد القادر الكيلاني) ،وان احتفاء سرده بالأجواء الشعبية جعله أكثر قدرة في التعبير عن تلك الأجواء ، وهنا لا أقول لمعايشته الحال عن قرب ، فكلا الكاتبين عاشا بعيدا عن تجربة الحصار ، وفي النتيجة ربما أرادت الخضيري الكتابة عن عائلة ميسورة في زمن الحصار !! ، وليست عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة كما تصرح هي بذلك ، ذلك لأننا لم نقتنع بأن العوائل التي ساقتها إلينا الخضيري على أنها عائلات متوسطة الحال ، فعلى سبيل المثال ؛ (أبو غايب) كان موظفا مرموقا في الدولة العراقية ، وله اهتماماته الفنية التي جعلته يقتني لوحات تشكيلية غالية الثمن ، حتى انه أراد تهريبها للأردن لبيعها ، فضلا عن تفكيره بإصلاح فم دلال المعوج ، وأخيرا إقامته لمشروع تربية النحل ، أنا شخصيا إذا وقفت أمام شخصية تمتلك هذه المقومات لا اصنفها على أنها من الطبقة المتوسطة ، واكرر ثانية وأقول إننا نتحدث بمنطق تسعينات القرن الماضي ، وللمقارنة نستعين بشخصية (عبد الستار) بطل التكرلي الذي كان معلما وسائق تكسي في آن ، وهكذا مرة أخرى أجد أن منطق التكرلي أكثر إقناعا في هذه المسألة أيضا .

ولكني أسجل للخضيري براعتها في ربطها الماضي بحاضر الرواية (فترة التسعينات) ، عندما جعلت مبتدأ الآلام ومستهلها هو نكسة حزيران 1967 ، التي لولاها لما قتل والدا دلال ، في حين قصر التكرلي أحداثه على عقد التسعينات ولم يجعل هذا العقد ثمرة لتداعيات سابقة كما هي الخضيري .

أما النقطة الجوهرية التي دارت حولها الروايتان فهي مسألة تغير قيم المجتمع في ظل الحصار وتحولها صوب الانحدار ، ويبدو لي أن التكرلي في هذه المسألة كان أكثر إقناعا من الخضيري أيضا ، فحالة الانكسار من الداخل والهزيمة الداخلية التي كان الإنسان العراقي يعيشها هي المعلم الأهم في خضم هذا الموضوع كله ، وهنا أود الاستعانة بمقطع حواري دار بين (عبد الستار)سائق سيارة الأجرة وبين احد الركاب ، وكان شيخا كبيرا في السن انطوى على تجربة حياته ، وتدور الحوارية بين الاثنين حول موضوع الحصار وانه كان امتحان لهم ، بل هو قدرهم الذي لا مفر منه ،فالله هو الذي أراد ذلك ، ولا دخل للفرد فيه ، ومن ثم فعلى الجميع القبول بهذا الواقع(28) ، وهنا بودي الاستشهاد بمقولة للإمام علي (ع) عندما سأله احدهم : كيف صرت تقتل الأبطال ؟ ، فأجابه عليه السلام:أني كنت ألقي الرجل فيُقدر أني أقتله وأقدر أني أقتله فأكون أنا ونفسه عليه ، فنهزمه ، وهو عين ما عناه التكرلي ، فالشعب العراقي بات مقتنعا ـ حسب التكرلي ـ بأن مسألة الحصار قدر رباني لا مفر منه ، ومن ثم فهو لا يستطيع تغير المعادلة ، والمعلم عبد الستار الذي كان يعلم تلاميذه القيم والأخلاق الحميدة ، صار هو بحاجة إلى من يعلمه تلك القيم ، وذلك بعد أن قرر عدم تسليم المخشلات الذهبية إلى أصحابها بعد أن تعرف عليهم ، ومن ثم الاستئثار بها لنفسه ، وحسنا فعل التكرلي عندما جعل بطله (عبد الستار) معلما ، لأنه بهذا أشار إلى مسألة تمسكه بالقيم الأصيلة أكثر من غيره ، كأن يكون موظفا مرموقا في الدولة ، كما انه حسنا فعل عندما جعل هذا المعلم يستقيل من وظيفته ، لأن في ذلك إشارة من التكرلي إلى أن سلك التعليم لدينا في العراق لم يتأثر بانحطاط القيم ، بدليل خروج عبد الستار منه ، وهذا أملنا جميعا .

في حين لم تستطع الخضيري ـ حسب رأيي ـ أن توصل الفكرة ذاتها لنا ، فأن يصير المهندس قصابا ، هذا أمر مألوف في العالم كله ، حتى أن معظم العرب والعراقيين الذين هاجروا إلى أوربا عملوا ربما بهذه الوظيفة في

بداية هجرتهم ، ومن ثم فهذا أمر لا يسجل انحطاطا في قيم المجتمع ، إنما فيه إشارة إلى مادية هذا المجتمع ، كذلك مسألة متاجرة الممرضة (الهام) بالأعضاء البشرية يدخل في هذا الباب ، فهو أمر يعكس مدى طمع وجشع ذلك المجتمع الذي يستسيغ مثل هذه التصرفات ، كما لا يمكن أن نعد تدهور نادي العلوية وتقلص أعضائه انعكاسا على مدى تدهور قيم المجتمع ، ويبدو لي أن الكاتبة أكثر خبرة مني في هذا الأمر ـ لأنها تحمل الجنسية البريطانية أو لأن أمها بريطانية ـ فكثيرا ما نسمع بالأخبار أن ملكة بريطانيا أعلنت أكثر من مرة عزمها على تأجير بعض قاعات قصرها الملكي للجمهور ، فضلا عن إعلانها بيع بعض ممتلكات القصر لسد النقص في الميزانية ، ومن ثم فلا أجد في هذا الأمر إشارة إلى مسألة انحطاط المجتمع ، بقدر ما أجد فيه إشارة إلى مدى عدالة ورقي ذلك المجتمع !! ، كما لا أجد في مسألة عمل أبي غايب في مجال تربية النحل ما يشير إلى انحطاط المجتمع وتدهور قيمه ، ربما أجد فيه إشارة إلى رومانسية أبي غايب ونشاطه ، كذلك لا يمكن أن نعد عمل الخالة خياطة كذلك ، ربما نغفر للخضيري في هذا الباب جعلها سعد الحلاق مخبرا سريا أو وكيلا للأمن ، وهي مهنة تنتم عن انحطاط قيمي ، ولاسيما أن المراقبين هم أبناء البلد الاصلاء وأهل جلدته وليسوا غرباء أو أجانب ، وفضلا عن ذلك فانا أجد في شخصية (أم مازن) ما يمكن أن يعوض على الخضيري في هذا الباب ، فشخصية فتاح الفال وقارئ الكف لا تنتعش إلا في المجتمعات البائسة ولا تنتعش إلا في ظل مجتمع فقير .

وهكذا فان نقطة الرواية الجوهرية عند الخضيري متماهية لا يمكن تحديدها بدقة ، نحن هنا لا يمكننا الإجابة عن سؤال يقول : ماذا أرادت الكاتبة أن تقول ؟ ، فلو افترضنا أن مجتمع رواية (الغايب) عاش في فترة اللاحصار ، ترى ماذا نتوقع أن يحصل له ؟ ، هل يعمل المهندس مهندسا ، والممرضة تترك المتاجرة بالأعضاء البشرية ،وأبو غايب يعيش مع لوحاته الفنية ،ودلال وخالتها تعيشان في حال أخرى غير حالتهما في الحصار ، وهل يترك عادل عمله كضابط امن ، وهل يترك سعد الحلاق مسألة التلصص على الناس والعمل كمخبر سري لدوائر الأمن ، وهل يزدهر نادي العلوية ويكثر رواده وأعضائه ، وهل تترك أم مازن عملها الذي يدر عليها عملة صعبة ؟؟ ! .

وأخيرا لابد أن أسجل للخضيري خصوصيتها ، بوصفها امرأة عندما طبعت روايتها بطابعها الانوثي وجعلتنا نتحسس الحصار وآلامه من وجهة نظر المرأة لا من وجهة نظر الرجل حسب ، وفي هذا الصدد أشير إلى اعتراف إحدى زبونات صالون الحلاقة عندما راحت تبث همها وتشكو حال لهفتها إلى زوجها الغائب ، فصارت تتخيل ستارة الشباك تتخيلها دشداشة زوجها الغائب ، كما يمكن أن نضيف إلى ذلك علاقة الحب بين دلال والضابط عادل ، فضلا عن الكشف عن زبونات أم مازن اللاتي جئن يبحثن عن الرجل الغائب في تنبؤات أم مازن .

وهنا أود أن أسجل تقدير المجتمع واحترامه للخضيري ، لأنها لم تنزل بشخصياتها المتعطشات للرجولة صوب الانحدار الخلقي ، ومن ثم لم تجعلهن يبحثن عن إقامة علاقات حميمة مع رجال خارج المنظومة القيمية التي يؤمن بها المجتمع العراقي ، لمجرد عطشهن للرجولة الغائبة ، ومما لا شك فيه أن هذا الأمر لا يمت بصلة لموضوعية العمل الروائي وحياديته بقدر ما يمت بصلة لاحترام المجتمع وعدم السعي لإشاعة الفاحشة فيه ، وإلا فان كل مجتمع تعرض لمثل ما تعرض له المجتمع العراقي ، ولاسيما المجتمع النسوي لابد أن تجد هنا وهناك من سعين إلى إشباع أنوثتهن ولو خارج المألوف المقبول.

وهذا الأمر ينطبق على التكرلي أيضا ، فهو لم ينحدر بنسائه ، ولا حتى برجاله صوب الفاحشة ، اللهم إلا إذا حسبنا عليه أفكار شخصياته ، كتفكير عبد الستار بان زوجته وابنتها قد باعتا جسديهما مقابل المخشلات الذهبية ، وفيما عدا ذلك فإننا لم نلمس منه ما يخدش حياء المجتمع وعفته ، ربما احتراما منه وتقديرا ، وليس نقلا لواقع موضوعي .

ومن جهة أخرى فأننا لم نلمس في (اللاسؤال واللاجواب) سوى الفكر الرجولي ، حتى أن زكية زوجة عبد الستار صارت تفكر مثلما يفكر الرجال ، فأول شيء تبادر إلى ذهنها عندما استقرت الملايين في يديها هو شراء منزل جديد للعائلة يخلصها من منزلهم الضيق ، ولعلي هنا لا أجانب الصواب عندما أقول إن التكرلي كان هو الذي يفكر نيابة عن زكية بوصفه رجلا ، فلو قدر لنا أننا وضعنا المبلغ الذي كان بحوزة زكية ـ من ثمن بيع المخشلات المسروقة ـ بيد دلال أو أبي غايب ، ترى ماذا سيحصل ؟ أو بالتحديد ماذا ستفعل به بتول الخضيري ؟ ، هل ستجعل أبو غايب يجري عملية تعديل فم لدلال ؟ ،أم أنها تجعله يوسع مشروعه في تربية النحل ؟، وربما كان هناك مشروعا آخر في ذهن الخضيري لدلال لعله الهروب إلى عمان مع لوحات زوج خالتها لتتخلص من واقعها المرير كما كان اغلب العراقيين يفعلون ،أو نزهة في شمال العراق أو شراء فستان

جديد لدلال ،أو حفلة أو حدث يشرح نفس دلال !!! ، وبكلمة أخرى أن الذي جعل أبا غايب يفتتح مشروع تربية النحل إنما هو بتول المرأة وليس أبو غايب الرجل ، كما أن الذي جعل زكية تشتري بيتا جديدا هو التكرلي الرجل ، وليس زكية المرأة ، فالرجل أول شيء يفكر فيه إذا وقعت بين يديه أموالا طائلة هو شراء بيت جديد لعائلته ، أو إجراء عملية لمريض من أهله .

وأخيرا ، فان من الصعوبة بمكان انتظار الخاتمة في مجال الدراسات النقدية والأدبية ، لنتعرف منها على نتائج البحث فيها ودراستها وتحليلها ، ذلك لأن نتائج الدراسة الأدبية و النقدية هي ما تقوله الأعمال الأدبية ذاتها ، وما البحث هذا إلا قراءة لهذه الأعمال الروائية ، أو انه كلام عنها ، وان قصارى ما يمكن أن نقوله في خاتمة البحث هوان نعرض للخطوط العريضة التي ركز عليها البحث ، فأقول :

عالجت الرواية العراقية ، حالها حال بقية الأجناس الأدبية الأخرى موضوع الحصار الاقتصادي الذي خيم على العراق في تسعينات القرن الماضي ،فاهلك الحرث والنسل ولم يبق معنى للحياة ، وتكاد أن تكون معالجة الروائيين العراقيين لهذا الموضوع متشابهة ، وفي هذا الصدد يمكننا الإشارة إلى تركيز الروائيين على مسألة تغير القيم والأخلاق وانحدارها صوب الهاوية ، ومما لا شك فيه أن الروائي الذي يكتب عن الحصار لابد له أن يكون واصفا للواقع لا مقيما له ، فهو حتى لو عرض مشاهد البؤس والجوع والعوز ، فانه لا يسوقها لتبرير الانحدار القيمي ، إنما هو يعرضها عرضا موضوعيا ، ليرسم واقعا عاشه العراقيون في فترة من فترات حياتهم ، وفي النهاية يقول إن هذا الواقع هو الذي جر على المجتمع الويلات ، ومن جهة أخرى أجد أن الروائيين العراقيين يؤكدون على الانحدار القيمي أكثر من تأكيدهم على مسألة الانحدار الأخلاقي ، وربما مرد ذلك إلى احترامهم لمجتمعاتهم وتقديرهم لها من باب عدم إشاعة الفاحشة ، وإلا فأنهم اغفلوا الكثير من حالات التدهور الأخلاقي ولم يشيروا إليها ،والتي كان الحصار سببا في إشاعتها .

الهوامش

1 ـ ينظر : تحولات الواقع في الرواية العراقية ، د. نجم عبد الله ، مجلة الروائي الالكترونية التي تعنى بشؤون الرواية (http://www.alrowaee.com/article.php?id=506)

2 ـ ينظر : الرواية العراقية على مفترق طرق-3 ـ حسين سرمك حسن ، نشرت هذه المقالة في جريدة الصباح الجديد البغدادية في 20/8/2007 .

3 ـ ينظر :بتول الخضيري: هجرة العراقيين جعلت الأجيال الأدبية لا تعرف بعضها ، حوار أجراه المشرف العام لمدونة الوطن بريس مع الكاتبة على موقع المدونة المذكورة ، في 1 ديسمبر 2007 ، والوطن بريس هو مدونة تهتم بشأن العراق وأخبار العرب والعالم (http://mohammedbakir.maktoobblog.com/page/2/)

4 ـ ينظر الموقع الشخصي للكاتبة : (http://www.betoolkhedairi.com/aboutme.htm)

5 ـ (بتول الخضيري: هجرة العراقيين جعلت الأجيال الأدبية لا تعرف بعضها)، حوار أجراه المشرف العام لمدونة الوطن بريس مع الكاتبة على موقع المدونة المذكورة ، في 1 ديسمبر 2007 ، والوطن بريس هو مدونة تهتم بشأن العراق وأخبار العرب والعالم (http://mohammedbakir.maktoobblog.com/page/2/)

6 ـ رواية (غايب) صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2004 .

7 ـ يراجع مقال فؤاد التكرلي يتحدث عن سطوة " المكان الأول " على رواياته مقال لعبد اللطيف السعدون ، نشر في صحيفة العرب القطرية في عددها (7549) الصادر في 11 / 2 / 2009 .

8 ـ ينظر : جريدة المدى البغدادية 16/آذار/2004 .

9 ـ أثار نشر «الشرق الأوسط» في 26 مايو 2001 لخبر عن رواية عراقية بعنوان «زبيبة والملك» يعتقد أن صدام حسين كاتبها، اهتمام وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.ايه) فطلب مسؤولوها البحث عن نسخة منها وترجمتها أملا في أن يجدوا فيها نافذة يطلعوا من خلالها على تفكير الرئيس العراقي .وشعر مراقبو العراق داخل «سي آي ايه» بالسعادة البالغة عندما عثروا على نسخة من الرواية الواقعة في 160 صفحة في مكتبة للكتب العربية في لندن. وبعدما درس مترجم تابع للحكومة الأميركية الرواية لمدة ثلاثة أشهر، أصبحت «سي.آي.ايه» على قناعة متزايدة بأن صدام حسين لم يكتبها، لكنه اشرف بعناية عليها وأضاف إليها الكثير من كلماته وأفكاره. وبالرغم من ذلك، فقد انكب المسؤولون الأميركيون على كل تفاصيل الرواية ثم قرأ البعض ما بين سطور نثر الرواية غير المترابط أحيانا والساخن بعض الأحيان لمعرفة ما يصفونه بأنه نافذة مثيرة على تفكير صدام حسين ، ولكن يبدو أن للتكرلي وجهة نظر أخرى ، فقد نشرت الصحيفة ذاتها في العاشر والثالث عشر من سبتمبر 2004 مقالة للروائي العراقي فؤاد التكرلي، عنوانها (قراءة في رواية صدام حسين " اخرج منها يا ملعون") ، وبعد عرض مسهب، يوجز التكرلي وجهة نظره حول الرواية بالقول بجملة معبرة واحدة: "إنه نص معبر رغم كل شيء". ويبدو أن التكرلي، الذي أرهق نفسه وأرهق القارئ معه في تلخيص الرواية من أولها إلى آخرها، وحتى لا نظلم الرجل ، لا يمكننا إلا أن نقول أن ضعف أدوات التكرلي البحثيّة والنقدية وإخفاقه في استخراج ما هو مفيد للقارئ مما قرأه .ينظر : ديكتاتور كبير، وقارئ كبير ـ قراءة في أدب صدام حسين الروائي، دراسة لسلام عبود منشورة على موقع العراقي (http://www.aliraqi.org/forums/showthread.php?p=500979):

10 ـ فؤاد التكرلي ـ الرواية تضيق باللحظة العراقيّة ، مقابلة مع فؤاد التكرلي أجراها سعد هادي ونشرت على صفحات جريدة الأخبار اللبنانية في ثقافة و ناس، العدد ٢٥٦الصادر في 20/6/2007

11 ـ ينظر : فؤاد التكرلي وتأريخ العراق المعاصر بقلم:د.إبراهيم خليل العلاف ، مقال منشور في جريدة فتى العراق (الموصلية) بعددها ١٩٥ الصادر يوم ٢٥ كانون الأول

12 ـ ينظر :مقال فؤاد التكرلي يتحدث عن سطوة " المكان الأول " على رواياته مقال لعبد اللطيف السعدون ، نشر في صحيفة العرب القطرية في عددها (7549) الصادر في 11 / 2 / 2009 .

13 ـ ينظر : مقال بعنوان :فؤاد التكرلي أنموذج رائع على الاهتمام بالشكل والمضمون ـ للدكتور زهير ياسين شليبه ، منشور على موقع الروائي (مجلة تعنى بشؤون الرواية) (http://www.alrowaee.com/article.php?id=364)

14 ـ فؤاد التكرلي ـ الرواية تضيق باللحظة العراقيّة ، مقابلة مع فؤاد التكرلي أجراها سعد هادي ونشرت على صفحات جريدة الأخبار اللبنانية في ثقافة و ناس، العدد ٢٥٦الصادر في 20/6/2007

15 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه .

16 ـ ينظر : المصدر السابق نفسه .

17 ـ ينظر : فؤاد التكرلي وتأريخ العراق المعاصر بقلم:د.إبراهيم خليل العلاف ، مقال منشور في جريدة فتى العراق الموصلية بعددها ١٩٥ الصادر يوم ٢٥ كانون الأول .

18 -: فؤاد التكرلي وتأريخ العراق المعاصر بقلم:د.إبراهيم خليل العلاف ، مقال منشور في جريدة فتى العراق (الموصلية) بعددها ١٩٥ الصادر يوم ٢٥ كانون الأول .
19 - رواية اللاسؤال واللاجواب نشرت بطبعتها الأولى في دار المدى عام 2007 .
20 - الرواية (اللاسؤال واللاجواب) : ص 7 .
21 - الرواية (اللاسؤال واللاجواب) : ص 93 .
22 - ينظر : فؤاد التكرلي - الرواية تضيق باللحظة العراقيّة ، مقابلة مع فؤاد التكرلي أجراها سعد هادي ونشرت على صفحات جريدة الأخبار اللبنانية في ثقافة و ناس، العدد ٢٥٦الصادر في 20/6/2007
23 - الرواية (اللاسؤال واللاجواب) : ص 111 .
24 - الرواية (الغايب) : ص 92 - 93 .
25 - الرواية (الغايب) : ص 50 .
26 - الرواية (الغايب) : ص 256 .
27 - الرواية (الغايب) : ص 159 .
28 - الرواية (اللاسؤال واللاجواب) : ص 93